٨- فصل

معن بن زائدة الشيبانى[١]

كان من الكرماء ، يقال فيه : حدث عن البحر ولاحرج .

[١٠٨] و[قيل] : كان عاملا بالبصرة فحضر على بابه شاعر وأقام مدة يريد الدخول فلم يتهيأ له ، فقال : يوما لبعض الخدام إذا دخل الأمير البستان فعرفنى ، فلما دخل أعلمه بذلك ، فكتب الشاعر بيتا ونقشه على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان ، وكان معن جالسا على القناة؛ فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها هذا البيت مكتوب :

أيا جود معن ناج معنا بحاجتى فليس إلى معن سواك رسول

فقال : من الرجل صاحب هذه ؟ فأتى به إليه ، فقال :كيف قلت : فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر[٢] ، فأخذها وانصرف فوضع معن الخشبة تحت بساطه ؛ فلما كان فى اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ينظر فيها ودعا بالرجل ، فأمر له بمائة ألف درهم ؛ فلما كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك . فتفكر الرجل وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه ، فخرج من البلد بما كان معه ؛ فلما كان فى اليوم الرابع طلب الرجل فلم يوجد ،فقال معن:

---

(١) معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيبانى ، أبو الوليد : من أشهر أجواد العرب ، وأحد الشجعان العظماء . أدرك العصر الأموى والعباسى . أخباره كثيرة ، وللشعراء فيه أماديح ومراث من عيون الشعر ، ت[١٥١هـ = ٧٦٨م] . انظر : وفيات الأعيان (١٠٨/٢) ، خزانة البغدادى (١٨٢/١) .

(٢) بِدَر ، مفردها بَدْرة : عشرة الاف درهم .

والله هممت أن أعطيه حتى لايبقى فى بيت مالى درهم ولادينار إلا أعطيته له . وفيه يقول القائل :

يقولون معن لا زكاة لماله ... وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم يجد فى دياره ... من المال إلا ذكره وجمائله
تراه ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت آمله
هو البحر من أى النواحى أتيته ... ولجته المعروف والبر ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنه ... أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو أن ما فى كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله

ومن قول معن :

دعينى أهب الأموال حتى ... أعف الأكرمين عن اللئام

[١٠٩] ويروى : أن معن بن زائدة ، خرج فى جماعة يتصيدون فاعترضهم قطيع ظباء فتفرقوا فى طلبه ، وانفرد معن خلف ظبى ؛ فلما ظفر به نزل فذبحه ، فرأى شخصا مقبلا من البرية على حمار فركب فرسه واستقبله فسلم عليه ، وقال له : من أين أتيت ؟ قال : أتيت من أرض قضاعة[1] ، وإن لى بها أرضا لها عدة سنين مجدبة وقد أخصبت فى هذه السنة ، فزرعتها قثاء فطرحت فى غير وقتها فجمعت منها ما استحسنته وقصدت الأمير معن بن زائدة لكرمه المشهور ، ومعروفه المأثور ، وإحسانه المذكور ، فقال له : كم أملت منه ؟ قال : ألف دينار ، فقال : إن قال لك كثير ، قال : خمسمائة دينار ، قال : إن قال لك كثير ، قال :

---

(١) قضاعة : قبيلة عربية جنوبية من حمير من من قحطان اليمن .

ثلاثمائة دينار، قال : إن قال لك كثير ، قال : مائتى دينار ، قال : إن قال لك كثير ، قال : مائة دينار ، قال : إن قال لك كثير ، قال : خمسين دينارا ، قال : إن قال لك كثير ، قال : فلا أقل من ثلاثين ، قال : فإن قال لك كثير ، قال : أدخل قوائم حمارى فى حرامه وأرجع إلى أهلى خائبا ، فضحك معن منه وساق حواده حتى لحق بعسكره ونزل منزله ، وقال لحاجبه : إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل به علىَّ . فأتى بعد ساعة ، فلما دخل على الأمير معن لم يعرفه لهيبته وجلالته وكثرة خدمه وحشمه وهو متصدر فى دست مملكته ، والحفدة قيام عن يمينه وشماله وبين يديه

فلما سلم عليه قال له الأمير معن : ما الذى أتى بك يا أخا العرب ؟ قال : أملت الأمير وأتيته بقثاء فى غير أوانها ، قال : فكم أملت فينا ؟ قال: ألف دينار ، قال : كثير، قال : خمسمائة دينار ، قال :كثير ، قال : ثلاثمائة دينار ، قال : كثير ، قال : مائتى دينار ، قال : كثير ، قال : والله لقد كان ذلك الرجل الذى قابلنى علىَّ مشؤما ، ثم قال : خمسين دينار ، قال : كثير، قال : فلا أقل من ثلاثين ، قال : فضحك معن وسكت ، فعلم الأعرابى أنه صاحبه .

فقال : يا سيدى إن لم تعطنى الثلاثين ، فالحمار مربوط بالباب وها أنا مع معن جالس، فضحك معن حتى استلقى على قفاه ، ثم استدعى بوكيله وقال له : أعطه ألف دينار ، وخمسمائة دينار ، وثلاثمائة دينار ، ومائتى دينار، ومائة دينار ، وخمسين دينارا وثلاثين دينارا ودع الحمار مربوطا مكانه فبهت الأعرابى ، وتسلم ألف دينار ومائة وثمانين دينارا فرحمة الله عليهم أجمعين .

[١١٠] وقيل : كان معن بن زائدة فى بعض صيوده ، فعطش فلم يجد مع غلمانه ، فبينما هو كذلك ، وإذا بثلاث حوار قد أقبلن حاملات ثلاث قرب فسقينه فطلب شيئاً من المال مع غلمانه فلم يجده ، فدفع لكل واحدة منهن عشرة أسهم من كنانته ، نصولها من ذهب ، فقالت إحداهن : ويلكن لم تكن هذه الشمائل إلا لمعن بن زائدة فلتقل كل واحدة منكن شيئاً من الأبيات فقالت الأولى :

يركب فى السهام نصول تبر ... ويرمى للعدا كرما وجودا
فللمرضى علاج من جراح ... وأكفان لمن سكن اللحودا

وقالت الثانية :

ومحارب من فرط جود بنانه ... عمت مكارمه الأقارب والعدا
صيغت نصول سهامه من عسجد ... كى لايفوته التقارب والندى[1]

وقالت الثالثة :

ومن جوده يرمى العداة بأسهم ... من الذهب الإبريز صيغت نصولها
لينفقها المجروح عند انقطاعه ... ويشترى الأكفان منها قتيلها

[١١١] وكان مع كرمه صاحب شهامة ، فمن ذلك : أنه سعى رجل فى إفساد دولة المهدى وكان من الكوفة فعلم به المهدى فهدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فأقام الرجل حينا مختفيا ، ثم ظهر فى بغداد فبينما هو فى بعض الشوارع إذ رآه رجل من الكوفة فعرفه ، فأخذ

---

(١) عَسْجَد : الذهب .

بمجامع طوقه ونادى هذا طلبة أمير المؤمنين ، فبينما الرجل على تلك الحالة وقد احتمع حوله خلق كثير ، إذ سمع وقع حوافر الخيل من ورائه فالتفت فإذا هو بمعن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله ، فوقف فقال للرجل الذى تعلق به : ما تريد منه ؟ قال : هذا طلبة أمير المؤمنين ، أهدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فقال له معن : دعه ، ثم قال : يا غلام أردفه فأردفه وكر راجعا إلى داره ، فصاح الرجل معن حال بينى وبين من طلبه أمير المؤمنين ، ولم يزل صارخا إلى أن أتى قصر المهدى فأمر المهدى بإحضار معن ، فأتته الرسل فدعا معن أولاده ومماليكه وقال : لا تسلموا الرجل وواحد منكم يعيش ، ثم سار إلى المهدى فدخل وسلم ، فلم يرد عليه، ثم قال : يامعن أتجير علينا عدونا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال المهدى : ونعم أيضا ، واشتد غضبه فقال معن : يا أمير المؤمنين بالأمس بعثتنى إلى اليمن مقدم الجيش فقتلت فى طاعتك فى يوم واحد عشرة آلاف رجل ، ولى على مثل هذا أيام كثيرة فما رأيتمونى أهلا أن أجير رجلا واحدا استجار بى ، ودخل منزلى ؛ فسكن غضب المهدى وقال : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد ، قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله بصلة يعلم منها موقع الرضا ، فإن قلب الرجل قد انخلع من صدره خوفا ، قال : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم ، قال : يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، قال : قد أمرنا له بمائة ألف درهم ، قال : عجلها يا أمير المؤمنين ، فإن خير البر عاجله ، فأحضر معن الرجل وقال له : خذ صلة أمير المؤمنين ، وقبل يده وإياك ومخالفة خلفاء الله فى أرضه ، فما كل مرة تسلم الحرة . فأرسلها الناس مثلا وأخذ الرجل المال واستغفر الله ، انتهى .

[١١٢] و[قيل] : كان معن لا يغيظ أحدا ولا أحد يغيظه ، فقال بعض الشعراء: أنا أغيظه لكم ولو كان قلبه من حجر ، فراهنوه على مائة بعير إن أغاظه أخذها ، وإن لم يغظه دفع مثلها .

فعمد الرجل إلى جمل فذبحه وسلخه ولبس الجلد مثل الثوب وجعل اللحم من خارج والشعر من داخل والذباب يقع عليه ، ويقوم ولبس برجليه نعلين من جلد الجمل ، وجعل اللحم من خارج والشعر من ناحية رجليه ، وجلس بين يدى معن على هذه الصورة المشروحة ومد رجليه فى وجهه وقال :

أنا والله لا أبدى سلاما على معن المسمى بالأمير

فقال له معن : السلام لله إن سلمت رددنا عليك ، وإن لم تسلم ما عتبنا عليك. فقال الشاعر :

ولا أنزل بلادا أنت فيها ولو حزت الشآم مع الثغور[1]

فقال له : البلاد بلاد الله ، إن نزلت فمرحبا بك وإن رحلت كان الله فى عونك . فقال الشاعر :

وأرحل عن بلادك ألف شهر أجد السير فى أعلا القفور

فقال له : مصحوبا بالسلامة . فقال الشاعر :

---

(١) الثغور ، مفردها ثغر : الموضع المحاذى للعدو . ويقصد : الشام مع الثغور ، أى الشام وما حولها .

أتذكر إذ قميصك جلد شاة وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال له : أعرف ذلك ولا أنكره . فقال الشاعر :

وتأوى كل مصطبة وسوق بلا عبد لديك ولا وزير

فقال له : مانسيت ذلك يا أخا العرب . فقال الشاعر :

ونومك فى الشتاء بلا رداء وأكلك دائما خبز الشعير

فقال : الحمد لله على كل حال . فقال الشاعر :

وفى يمناك عكاز قوى تذود به الكلاب عن الهرير

فقال له : ماخفى عليك خبرها إذ هى كعصى موسى . فقال الشاعر :

فسبحان الذى أعطاك ملكا وعلمك القعود على السرير

فقال له : بفضل الله لا بفضلك . فقال الشاعر :

فعجل يا ابن ناقصة بمال فإنى قد عزمت على المسير

فأمر له بألف دينار . فقال الشاعر :

قليل ما أمرت به فإنى لأطمع منك بالشىء الكثير

فأمر له بألف دينار أخرى . فقال الشاعر :

فثلث إذ ملكت الملك رزقا بلا عقل ولا جاه خطير

فأمر له بثلاثمائة دينار . فقال الشاعر :

ولا أدب كسبت به المعالى ولا خلق ولا رأى منير

فأمر له بأربعمائة دينار . فقال الشاعر :

فمنـــك الجـــود والإفضـال حقا وفيـــض يديـــك كـالبحر الغزير

فأمر له بخمسمائة دينار ، ومازال يطلب منه الزيادة حتى استكمل ألفى دينار ؛ فأخذها وانصرف متعجبا من حلم معن وعدم انتقامه منه ، ثم قال فى نفسه : مثل هذا لا ينبغى أن يهجى بل يمدح ، واغتسل ولبس ثيابه ورجع إليه ، فسلم عليه ومدحه واعتذر له بأن الحامل له على هجوه المائة بعير التى صار الرهان عليها فى نظير إغاظته فأمر له بمائة بعير يدفعها فى نظر الرهان وبمائة بعير أخرى لنفسه فأخذها وانصرف ، والله أعلم .